قضايا الأدب والأدباء

دفاع عن الفارس الجديد

الدكتور لويس عوض

خلف قناع « الفارس القديم »

بقلم « معين توفيق بسيسو »

« معذرة يا صحبتي ، قلبي حزين : من اين آتي بالكلام الفرح » ؟

والقائل ، لم يكن في « بابل » ، وليس من اي سبط من اسباط المنفيين ، العاجزين عن الفرح ، وعن الغناء ، «وكيف يغنون اناشيد الرب وهم في بلاد غريبة » ؟!

والذي استهل ودشن مقالته الاولى بهذا الكلام العاجز عن الفرح، هو الدكتور لويس عوض . والذين « قالوا » ولماذا كل هذا الحزن والعبوس ونحن نبني الاشتراكية والسد العالي ؟ « وقالوا » هنا يضعها الدكتور لويس عوض مقدما على السنة « الذين » قدر ان يستفهموا عن لغز الحزن والعبوس ، وقدر انهم من انصار الكلام الفرح ، عن الاشتراكية والسد العالي . ثم ينقض بكلمة « قلت » :

.. « دعونا من كل هذا (اي من الاشتراكية والسد العالي) ، فحين تهمهم في عبقر شياطين الشعر ، وحين تنشد ربات الفنون التسع، الساكنات فوق هيلكون ، وحين تتجاوب في جنبات الوادي ، انات ارغول حابي ، ذي الغدائر الغزيرة ، ... فلننصت له في خشوع ، ولو كان مزماره يملأ الكون بالانين والاشجان » ..

ويسترسل الدكتور لويس عوض في هذه الهمهمة او هذه التهويمة ، حتى تنضد ربة الشعر من دموع « الفارس القديم » الدر في تاجها الجديد ، .. تمهيدا لتكليله اميرا لبلاط الشعر ، هذا البلاط الذي اعلن الحداد ثلاثين عاما منذ موت اميره شوقي ، وها هو ذا يخلع شارات حداده ، ويتأهب لاستقبال اميره الجديد ... والحاجب يطلق في ابهاء البلاط صيحته التقليدية : (مات الامير ، عاش الامير) .

.. « ومرة اخرى ، ولا ضرر هنا من التكرار ، دعونا من كل هذا ، دعونا من السد العالي ودعونا من الاشتراكية ، ومرة ثانية فالكلمات هنا للدكتور لويس عوض ... ولكننا لن ندعه .

ولنتابع طريق الخلاص بالموت ، والتي يدشن بها دراسته « لاحلام الفارس القديم » وليس الغرض هنا الرد على دراسة الدكتور لويس عوض المنشورة في ملحق الاهرام (اغسطس) بدراسة مضادة او تقييم مضاد ، وبشكل مستفيض وتفصيلي للموقف الكلي من اشعار صلاح عبد الصبور ، رغم المنهج الاستفزازي الذي اتجهه في دراسته والموجه لشعرنا العربي المعاصر ، ورغم انه تمدد على اريكة السلطان من آل عثمان ونطق البراءة العظمى . فالغرض وبتركيز التعرض للخطوط الرئيسية لمنهج الدكتور لويس عوض وموقفه التبشيري من احلام الفارس القديم.

ومنذ البداية وحتى لا ينفخ الدكتور لويس عوض في البوق ويطلق صيحة الدفاع عن الشعر ، وفي وهم المفاهيم التي تحاول ان تصبه في قوالب من حديد ، في قوالب من الشعارات ، وتحوله الى « مكبرات صوت » تصرخ في وادي عبقر فتطرد منه شياطين الشعر وتفزع ربات الفنون التسع الساكنات فوق هيلكون وتطغى على انات ارغول حابي ذي الغدائر الغزيرة ، لا بد من التأكيد باننا لا نرى وبشكل مطلق ان يكون دور الشعر هو دور « مكبرات الصوت » ، او دور « المنجنيق » الذي يقذف الشعارات السياسية ونرفض بحزم ان تستأصل « حنجرة الشاعر » لكي تزرع بدلا منها « حنجرة الببغاء » .

اذن فليهدأ وليطمئن الدكتور لويس عوض ، فنحن لسنا من دعاة تكوين « ميليشيا من الشعراء » تنتعل « الكعوب الحديدية » وقدامها تقرع الاجراس ، ولكننا في الوقت نفسه نعلن معارضتنا لاي اتجاه في الادب او الفن يشيح بوجهه عن مواجهة الحقيقة ومواجهة الحياة ، ويتجه بكل ثقله الى ذلك العالم الذي يسميه « ايليا اهرنبورغ » « مصنع الاحلام » .

ونحن نعلم عن يقين انه ما من فن كتب له البقاء وكان صديقا للانسان ، قد قام وارتكز على الحلم ، مهما كان هذا الحلم كبيرا ورائعا ، رغم ان الحلم هو عنصر من عناصر تكوين الشعر والشاعر ولكن الحلم الذي يشكل مثل هذا العنصر هو الحلم الذي تلهبه ابدا اليقظة العميقة الملتهبة بمصير الانسان ، والاحساس العارم برؤى الانسان وتطلعاته الى الرائع والى الجديد في الحياة والانسان .

ومثل هذا العنصر يشكل مع بقية العناصر الاخرى ذلك الانعكاس للحقيقة ، حقيقة الوجود وحقيقة الانسان والتي تكللها عبقرية الشاعر وتشكلها .

.. ومرة اخرى ، اننا لا نرفض احلام الشاعر اذا ما ارتبطت بلا فكاك بتلك اليقظة الرائعة المقبلة للانسان وجاءت تعبيرا عنها ودافعا لها ، ورفضنا لاحلام الفارس القديم ولمنهج الدكتور لويس عوض في تقييم هذه الاحلام او تفسيرها انما يستند على اساس رفضنا هذه النماذج من الاحلام التي تحلق في اقفاص الغيبوبة ، الاحلام العقيمة ، التي لا تلد البهجة والفرحة الغامرة في قلب الانسان وتخصب تطلعاته ورؤاه .. وقديما قال ماركس « الفن اسمى درجة من درجات الفرح يستطيع الانسان ان يهبها لنفسه » .

ان دراسة الدكتور لويس عوض تتبلور في مقالتيه المتتابعتين حول « احلام الفارس القديم » في انها مرحلة الانتقال من التجربة الخاصة الى التجربة العامة ، ومن جزيئات الوجود الى كلياته ، وان صلاح عبد الصبور قد اصبح بديوانه الاخير يتلمس طريق الانسان الى الخلاص والبحث عن الخلاص اول بوادر مواجهة الوجود بفلسفة ايجابية هي بداية كل شعر عظيم وفن عظيم .

ونحن نتفق تماما مع الدكتور لويس عوض في ان مواجهة الوجود بفلسفة ايجابية والتي تستدعي بالتالي رفض اية فلسفة سلبية تريد ان تهرب بالانسان وتسحبه وراءها الى اعماق الكهوف والسراديب وبشكل ادق رفضنا المنهج المثالي الغيبي ، وليس رفضه فحسب ، بل التبشير بالفلسفة العلمية وربطها بحركة الانسان الجديد في بلادنا حتى تتحول الى قوة محركة هائلة دافعة ، وبوصلة هادية تهندس الفكر وتغذي الروح . ولا يعني هذا ابدا وضع الشعراء والكتاب في محجر صحي ان اصيبوا بوباء مبدأ معاداة الحياة ومعاداة الانسان فسنتركهم للحياة الجديدة في بلادنا ولانسانها الجديد .

ولكن اية « فلسفة ايجابية » هذه التي تقود الى الخلاص عن طريق الموت ، والتي يبشر بها الدكتور لويس عوض ؟ وهنا قد يقول : ان هذا النص قد انتزع بوحشية من مقالته ، وانه لا يرى رأي الفارس القديم في طريقه الى الخلاص ، وان ما اهتدى اليه من فلسفة ايجابية قد يكون معاديا لمبدأ الحياة .

وقول الدكتور لويس عوض صحيح تماما لو كان منهجه في تقييم « احلام الفارس القديم » وفلسفته الايجابية ، فلسفة الخلاص بالموت ، هو منهج رفض الموت ورفض الخلاص عن طريق الموت كالمنهج الذي سلكه على سبيل المثال الكاتب محمود امين العالم في نظرته ولو الخاطفة « لاحلام الفارس القديم » .

فمسؤولية الناقد ليست ابدا بمثابة توظيف القلم لعرض افكار

هذا الشاعر او ذاك الكاتب ثم القاء المرساة على شاطىء جزيرة محايدة وهذه هي الف باء النقد والتقييم والتي لا يمكن ان تخفى على شارح شكسبيري معروف كالدكتور لويس عوض . ان مسؤولية الناقد في مواجهة ما يلقى امام الانسان من افكار ومفاهيم تاخذ صورا واشكالا ادبية تكمن في ان يعرى حتى العظم اي اتجاهات معادية لمبدا الحياة وان يقف بحزم ليسد كل البوابات الكبيرة والصغيرة في وجه اي اتجاه يحمل بذور الردة او بذور الثورة الفنية والادبية المضادة ، وان يكون حارسا امينا لتراثنا الفني والادبي ومدافعا صلبا عن روح حياتنا .

ومرة ثانية قد يكون قول الدكتور لويس عوض صحيحا تماما في عدم اتفاقه مع مفهوم الخلاص بالموت ، ولا ضرر هنا من التكرار لو لم تكن خاتمة المطاف بل بدايته هو استخدام الدكتور لويس عوض لذلك الحق للبابوات في تتويج الفارس القديم أميرا لبلاط الشعر .

كان من الممكن ان نصدق رفض الدكتور لويس عوض للفلسفة الايجابية للفارس القديم ، لولا العرض التبشيري ولولا التفسير التبشيري لاحلام الفارس القديم الذي يرى ان مأساة الانسان تكمن في انقطاع السلم بين الارض والسماء وفي انهيار الجسر بينهما ، والذي يرى ان نكبة الانسان هي في محاولة الرؤيا والى ابعد مما تسمح به طاقات العيون ، ومد اليدين الى ابعد مما تسمح به طاقات اليدين ، وفي كلمات فمأساة الانسان ونكبته هي في نشدان المعرفة المحرمة .

والذي يراه الدكتور لويس عوض ـ ومن خلال المنهج التبشيري والتفسيري لاحلام الفارس القديم ـ سر نكبة الانسان ، نراه سر عظمة الانسان وصميم وجوده . فنكبة الانسان في مفهومنا تكمن في العقم والعجز عن التطلع الى ما هو اروع وابدع واكثر ايجابية وانطلاقا ، وان عظمة الانسان مرهونة بمحاولاته المستميتة والدامية وعبر العصور في نشدان المعرفة ، ورفض مفهوم « الفاكهة المحرمة » على الانسان هذه الفاكهة التي ان اصابها الانسان سقط من حالق ، تدحرج من الفردوس، ففضيلة آدم وبغض النظر عن فعالية كل المغريات هي انه اكل من الشجرة التي نهي عنها ، وهي ليست خطيئته ، وبالتالي خطيئتنا ، فتجاريب الانسان نحو ان يعرف ، « عقاب التجربة » فالتجربة وفي المضمون الايجابي لحكاية آدم والشجرة ، هي بمثابة الوجود على الارض فهو ليس نفيا ولكنه الانتقال ، من مرحلة الحكاية ، الى مرحلة الوجود الكمي والنوعي للانسان ، حتى على ضوء الشكل البدائي للاسطورة .

فالخطيئة الاولى للفارس القديم كما يؤكد منهج الدكتور لويس عوض التبشيري ، جاءت « بالموت » الذي نسميه « الميلاد » او نسميه الحياة ، ولا منجاة من هذا الموت الا « بشنق المادة » وتدمير الحياة والاندماج من جديد في ذات الله . اي ان خطيئة الانسان هي انه موجود وكائن ، هي في صميم حياته ووجوده وكينونته ، ولا سبيل الى التطهر، لا سبيل الى « النرفانا البوذية » الا عن طريق الموت ، ما دام ان الحياة خطيئة ، « وما دام ان الله حين خلق الانسان وجده خاليا من الوسامة، كالفنان يصوغ تمثالا لا يروقه فيسخط عليه ويمتهنه ويهمله في ركن معتم من مشغله لتتجمع وتتكدس عليه الاتربة والعناكب » ، كما يقيم ويحلل الدكتور لويس عوض الانسان من وجهة نظر الفارس القديم ونظرته التبشيرية لهذه النظرة .

فهل هذا هو الانسان الذي نراه وننشده ؟ وهل نحن نستفز الدكتور لويس عوض لو قلنا ان الانسان الموجود حقا معنا على ارضنا ، اقرب كثيرا من شيطان الشعر في وادي عبقر ومن المنشدات التسع فوق الهيلكون ، واقرب من حابي وارغوله وغدائره الغزيرة ، ولا يمت بصلة ابدا الى انسان الفارس القديم وانسان الدكتور لويس عوض ، وانه ليس انسان الخلاص بالموت ولا انسان الانحناء امام شجرة المعرفة وعبادتها انه انسان السد العالي وانسان طريق التطور غير الرأسمالي ، الانسان الذي يرسي الاشتراكية .

وهل هي مبالغة منا في تعدية منهج الدكتور لويس عوض التبشيري لاحلام الفارس القديم لو سحبنا موقف الانسان الجديد في بلادنا والذي يعيش الى جواره « الحالم ومفسر الحلم » ، على كل هذه الانجازات الرائعة لانساننا الجديد .

انه القاء المرساة اذن على شاطىء العزلة او التجديف من ميناء الانسان الجديد الى جزيرة « روبنسن كروزو الجديدة » مهتدين بوصلة الايمان الذي هو « الرضا بما يريد القضا » .

وهل صراع الانسان من اجل ان يتطلع الى ابعد من طاقات عيونه وان يمد ذراعيه الى ابعد من طاقات ذراعيه يقوده الى الارتطام بسقف الكون والسقوط على الارض من اعلى عليين على ام رأسه ، ومن ثم الهلاك . اي ان التطلع وفي كلمة هو التهلكة وهو سقوط الانسان،هذا في الوقت الذي يصعد فيه اناس من هذا العصر « المعراج » ليس عن طريق الحواس او عن طريق « الاوهام » ولكن عن طريق الفلسفة العلمية التي يعرفها الدكتور لويس عوض جيدا ، ومع ذلك فهم لا يرتطمون بسقف الكون ولم يسقطوا من حالق بل ركزوا اعلام فلسفتهم ونظريتهم الايجابية للحياة على سطح القمر ، هذا في الوقت الذي نرى فيه اناسا من ابناء هذا العصر ، ومن عشيرة الدكتور لويس عوض ومن ابناء بلاده لا يرون في التطلع تهلكة ولا يرون في محاولة الصعود سقوطا . ولهذا رفضوا طريق الانحدار الوحشي للانسان ، طريق ان يذبح عقله قربانا على اعتاب شجرة المعرفة ، بل ساروا في طريق اخر مضاد ، طريق تقديم شجرة المعرفة قربانا للانسان ، واشاحوا بوجوههم عن طريق « الرضا بما يريد القضا » .

وهل ندخر مفاجاة للدكتور لويس عوض لو قلنا ان منهجه التبشيري في هذه الدراسة لاحلام الفارس القديم هو عودة للموت ، وللارض الخراب ، « ولباوند ولاليوت » ، عودة الى الانسان الممزق الضائع القاتم ، عودة الى « اقدام الغيران فوق الزجاج المكسور » كما يقول « اليوت » وكما يرسم الانسان المعاصر في صورة الانسان التافه ، المقفر ، المشلول القوة والمحطم الارادة ، ويتصور العالم الذي نعيش فيه مملكة اولى للموت كما يقول في قصيدته « الخاوون » .

وحينما نجرد الفارس القديم من درعه وسيفه ومهاميزه وجواده المنحوت من الضباب ومن طلاسمة ، ماذا يبقى من هذا الانسان ، من هذا الفارس ، غير تلك الصورة المهزوزة للانسان « اللاعن يوم مولده » ، للانسان الذي « تطارده اللعنة في حله وترحاله » ، للانسان الذي طريق خلاصه الوحيد هو الموت . ومن كان في انتظار هذا الفارس في نهاية المطاف لاحلامه ، غير الدكتور لويس عوض وباقة من الزهور الاصطناعية في يده و « ديكريتو » البراءة العظمى بلقب وريث امارة احمد شوقي .

وهل نحن نتجنى على الدكتور لويس عوض حينما نلحق فارسه القديم بركب «ابي الفوارض» اليوت بركاب « اليباب » ، و «الخاوون» بركب الموت ورفض كل تجربة ومعرفة الانسان جملة وتفصيلا ونحن نراه وبأم عيوننا ممتطيا صهوة جواده لابسا درعه ، وسيفه في غمده و « السيف في الغمد » هنا دلالة وعلامة الفلسفة الايجابية للفارس ، اذ ما حاجته في الواقع الى سيف مسلول ؟ ... وهو الذي يشيح بوجهه ووجه جواده عن انساننا الجديد ، وعن كل انجازاته ، ولا نسمع منه الا « همهمات الرضا بالقضا » والحذر من التطلع الى اعلى ، وعبادة شجرة المعرفة ، والتهديد بالارتطام بسقف الكون ، عند اي محاولة من محاولات الصعود ، وكل هذه الصور بظلالها وبموحياتها وبموقفها الفلسفي الايجابي ، انما تعني العقم ورفض ان نكون مخصبين ونكران قدرتنا على الاخصاب اولا وثانيا وثالثا ... ؟

هذا الانسان العقيم ، الساقط من فردوسه لتطاوله على اثمار شجرة المعرفة والطريد والذي هو بلا جنسية من يكون اذن ؟ « هذا الشيء ، هذا الانسان ، الذي حدث ذات مرة في الماضي البعيد ، وفي العصر الذهبي لن يعود ، اما نحن فقد سقطنا خارج حساب الزمن ، سقطنا في عالم المستحيل او عالم اللاوجود الذي لا امل في النجاة منه، والكلمات هنا والصورة عن مثل هذا الشيء ، هذا الانسان ، هي حصاد الفلسفة الايجابية للفارس القديم ، واحد معطيات المنهج التبشيري التحليلي للدكتور لويس عوض .

فأي انسان هذا الذي يتحدث عنه الفارس القديم وكمفسر احلامه « انه بلا ادنى شك وعلى ضوء كل النوايا الطيبة فوق سطح هذا الكوكب ، انسان يواجه ازمة ، انسان تلفه دوامة ازمة ، وازمة حادة شرسة انسان ، « في قلبه جرح ، وبين عينيه جرح » ، انسان يعيش في

غرفة بلا نوافذ ، ولا ابواب ، وبلا سقف ايضا ، غرفة معلقة في الهواء ، ولو حاول تسلق الجدران العريانة ، من النوافذ والابواب ، فالى اين ؟ والسقف المفتوح هنا ، هو الدرجة الاخيرة قبل الهاوية ، انه باختصار الانسان الساقط ، الانسان الذي حفرت على جبينه وبالحديد المحمي ، كلمة « السقوط » ، ولا طريق للخلاص من هذه الغرفة المسدودة الا بالموت ، ما دامت الفتحة الوحيدة في الغرفة ، اي السقف هو جسر الهاوية .

واية ازمة هذه التي يواجهها الفارس القديم ومنهج الدكتور لويس عوض ؟ لقد جاءت السريالية والوجودية وما تفرع عنهما كما جاءت قصائد « بوند » و « اليوت » ، واترابهما من رفاق قافلة الموت تعبيرا عن ازمة النظام الرأسمالي وتفسخه ، وافلاسه ايدلوجيا ، كانت هجمة الثورة الادبية والفنية المضادة للواقعية التي كانت مرفوعة الرايات قبل الحرب في ادب برناردشو ورومان رولان وانا تول فرانس الخ ... وهكذا طفا فوق سطح التيار ، والى حين ، امثال فاليري وجيمس جويس وبروست واليوت . وها هو لم يبق منهم الان غير بقية صرخات مبحوحة في الحناجر ، فوق ما اسموه جثة العالم العفنة . هؤلاء الذين لا يعنون بالحياة وبالمجتمع وبالمصير الحق والعادل للانسان والذين انقسموا الى معسكرين ، معسكر الممدين على ارائك وسرر الفيبوبة ، سرر النظام الرأسمالي المحتضر ، يمضغون احلامهم ، ومعسكر رحال طواف يفتش عن الخير ، في أرض بكر لم تمسها يد الصناعة ولم تخلق فيها النظم الحضارية شيئا من المشكلات .

فعلى ارض اي معسكر من هذين المعسكرين يقف الدكتور لويس عوض حاملا دروع واحلام الفارس القديم ؟ ما دمنا نؤمن بالانسان ككائن ذي علاقات اجتماعية متجددة ، وما دمنا غير قادرين على العثور عليه بعيدا عن الطبقة التي ينتمي اليها ، كما لا يمكن ان نجده فوق الطبقات كلها ، او نكتشفه في صورة روبنسن كروزو وجزيرته .

وهل مثل هذا الانسان موجود حقا في بلادنا ، هذا الانسان العقيم المجدب ، ذو الخطيئة الشائكة كالعوسج المسنونة كانياب سمكة الفرش ، هذا الانسان الذي تكمن مأساته في انه يريد ان يرى ابعد مما تسمح به عيناه ، والذي محور نكبته في انه يريد مد يديه الى ابعد مما تسمح به يداه ، هذا الانسان الذي يحمل على ظهره كالصليب ثقل اللعنة الاولى ، لعنة التطاول والتجاسر على اثمار شجرة المعرفة ، الانسان الذي يحمل في احشائه ، بذور الهاوية .

ان الحياة في بلادنا ، لا تعدم وجود مثل هذا الانسان ، الى اخر حرف في ابجدية العقم والسقوط ، والرضا بما يريد القضا ، ولكنه في كل الظروف وبشكل مطلق ، فان هذا الانسان ، لا يمثل القسمات والملامح الرئيسية ، للانسان الجديد في بلادنا ، ولا حتى الانسان القديم، ذي التطلعات الجسورة ، والنشاطات النضالية الدامية ، وفي غالب الظروف ، والتي اعطت « الانسان الجديد » او « الفارس الجديد » لو صح التعبير والذي لم يظهر فجاة كنبات شيطاني فوق ارض بلادنا ، بل ضرب جذور سيفه في اعماق ارضنا الطيبة عبر عشرات السنين ، وهو الفارس الذي ارهفت جماهيرنا السمع طويلا لرنين سنابكه فوق ارضنا.

ولقد كنا نعتقد ومرة اخرى وعلى ضوء النوايا الطيبة أن تجيء المقالة الثانية للدكتور لويس عوض وفيها ولو ملامح او ظلال رفض الفلسفة الايجابية للفارس القديم « المعادية لمبدأ الحياة » كما قال الدكتور لويس عوض في وقت من اوقات المقالة ، حينما تعرض للفلسفة الايجابية للفارس القديم ، لكنه القول الذي حاصره الدكتور لويس عوض بنفسه بين نارين هو الذي اشعلهما بيديه ، نار البراءة العظمى والتتويج ، ونار المنهج التبشيري للفلسفة الايجابية المعادية لمبدأ الحياة، واستنادا وانطلاقا من مبدأ الحياة نفسه الذي لا يعطى صكوك الغفران ، ولا نريد ان نقول لا يبيع الصكوك كما كان يفعل البابوات في القديم ، للذين يشيحون بوجوههم ويعطون ظهورهم للحياة والاحياء ، مبدأ الحياة الذي لا يضع التاج على رأس فارس الفلسفة الايجابية التي تبشر بالخلاص عن طريق الموت .

وجاءت مقالة « الخلاص بالحب » فكانت بمثابة اقامة كل طقوس التدشين لسيف الفارس القديم واذا بالخلاص بالحب يعني « لعنة الميلاد » ويعني « العودة للرحم » واذا بنشدان المعرفة عن طريق التجربة يعني السقوط والضياع ما دام ان التجربة تفقد الشاعر الخائض لغمارها « عذريته وبكارته » ، فكأن العذرية والبكارة يكمن سرهما في طرح المعرفة عن طريق نبذ وادانة التجربة والتقبل والرضا المستسلم للاشياء . وفي هذا تجريم وتأثيم مباشر لمكتسبات وانجازات التجربة والمعرفة الانسانية ، وبالتالي تجريد الانسان من امضى سلاح في يده وهو سلاح البحث عن الجديد واكتشاف المزيد من « جزر » و « قارات » التجربة والمعرفة وضرب بوصلة التطلع الى ما هو اكثر روعة وجمالا ، أي الذي لم يولد بعد ، والذي في طريقه الى ان يولد .

ولا نريد أن نخضع الى معادلة ذهنية هذه الفلسفة الايجابية للفارس القديم ، فلقد كفانا شر وضع مثل هذه المعادلات ما دام يصر بلا مواربة ، ويكوم امامه كل اقنعة الكلمات غير المباشرة وغير الصريحة ، ويشعل فيها النار ، ما دام يصر على تأثيم التجربة وتأثيم المعرفة وما دام الشاعر يتحول على ضوء بريق سيف الفارس القديم ، اذا ما حاول نشدان المعرفة عن طريق التجربة الى « عاهر » وهذه الكلمة هي المعطى الطبيعي والنتاج الحتمي لفقدان العذرية والبكارة ، ما دامت التجربة تفقد الشاعر العذرية والبكارة .

أليس « باطل الاباطيل .. الكل باطل » اذن ، كما يقول « الجامعة ابن داود » ، اليس الدوران حول صرخة الجامعة ، « انا الجامعة كنت ملكا على اسرائيل في اورشليم ، ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات ، هو عناء ردىء جعلها الله لبني البشر ليعنوا بها ، رأيت كل الاعمال التي عملت تحت الشمس ، فاذا الكل باطل وقبض الريح » .

غير ان الفارس القديم قد اضاف على ضوء ومنهج الدكتور لويس عوض التبشيري « الى العناء » عن طريق توجيه القلب للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل ، والى قبض الريح ، اضاف فقدان العذرية والبكارة و « تعهير الانسان » ..

ان العناء هو حتمية البحث ، وقبض الريح هو الحصاد واللعنة هي المكافأة ، وفوق كل هذا وذاك باطل الاباطيل ، الكل باطل .. ولا سبيل للانسان للخلاص الا عن طريق الموت ، ولا سبيل الا بالعودة الى الرحم .

لا ادري فحينما وقعت عيناي على عنوان المقالة الاولى « الخلاص بالموت » تبادر لذهني اول ما تبادر ان الخلاص بالموت ، قد يكون ولظروف واعتبارات كثيرة وحتى في المستوى المثالي ، الموت على الصليب ، فداء لخلاص البشرية وتكفيرا عن اخطائها كما فعل المسيح ، ولكن العنوان يمضي بلا ظل لصليب ، وهكذا لا تصبح حتى التضحية المثالية ولا تجربة المسيح للصلب، ولكأس الخل ، طموحا للفارس القديم، المدمن قراءة التوراة ، كما يؤكد الدكتور لويس عوض ، والذي قد قرأ ولا شك ملحمة الصليب وعرف تردد المسيح في البداية عن الدخول في التجربة ، في ان يجرع كأس الصلب ، حتى الثمالة ، ثم ما لبث ان طرح التردد واقتحم التجربة الجديدة الدامية وهو حامل صليبه على ظهره.. ولكن ومرة اخرى يمضي العنوان بلا ظل لصليب لا في مستوى التجربة الفردية المثالية ولا في مستوى الصلب والتضحية الجماعية كما تؤكد الحياة في بلادنا وكما يؤكد وجود الانسان الجديد نفسه ، هذا الانسان الجديد ، الذي ولد من بطون التضحيات الرائعة الكبرى .

واخيرا وليس اخرا ، فنحن لن نشيح بوجهنا عن الاشتراكية ، وعن السد العالي ، ولن ننطلق ملبين نداء شياطين الشعر في وادي عبقر ، او اناشيد ربات الفنون التسع ، الساكنات فوق هيلكون ، او ابن ارغول حابي ، ذي الغدائر الغزيرة ، ولن ننتظر حتى تستكمل شياطين عبقر ، وحتى تستكمل المنشدات التسع زينتها وآلاءء تيجانها ، وتخرج من عزلتها ، وتخلع عنها شارات الحداد ، .. اننا لن ننتظر هذه الآلهة ،... فلنا آلهة جديدة .. آلهة لا تسكن وادي عبقر ، ولا فوق الهيلكون ، بل آلهة تمزج عطرها كل يوم ، بالخبز الذي يأكله الدكتور لويس عوض ، وبالماء الذي يشربه ...

معين توفيق بسيسو